مجلة كلية الآداب

مجلة كلية الآداب، العدد 19، يونيو 2025

DOI: 10.36602/faj.2025.n19.07

مفهوم الحوارية:من تحريك دينامية الإبداع إلى تقويض أحادية القراءة

أوريدة عبود*[1]

[1] جامعة مولود معمري/تيزي وزو، الجزائر

البريد الالكتروني للباحث المسؤول: abboudourida@yahoo.fr

الاقتباس: عبود، أوريدة (2025). مفهوم الحوارية: من تحريك دينامية الإبداع إلى تقويض أحادية القراءة. *مجلة كلية الآداب جامعة مصراتة*. 19، 113-126. DOI: 10.36602/faj.2025.n19.07

تاريخ التقديم: 16-04- 2025 **تاريخ القبول:** 17-05- 2025 **نشر إلكترونيا في** 21-05-2025

ملخص البحث:

إنّ الكتابة نسيج من علامات مبنية ضمن المجموعة النصية الكبرى، تأخذ على عاتقها مبدأ تعددية اللغة المعبرة عن المحيط الاجتماعي والمبدأ الإيديولوجي، وهذا النشاط الموجه من خلال التفاعل الكلامي والخطابي يمكن اختصاره ضمن مفهوم الحوارية. **وعليه فإن** هذه الدراسة تهدف إلى الخوض في جملة من القضايا المتعلقة بهذا المفهوم من خلال الجهود التنظيرية لبعض نقاد الغرب لبسط تقديم مصطلح الحوارية – في مجال نظرية الرواية، هذا المصطلح الذي حمل بدلالات متعددة وطوره كثيرون وفق سياقات مختلفة.

يركز هذ البحث على حوارية باختين التي احتلت مساحة واسعة في فضاء الفكر النقدي الغربي، وكان لها الأثر الكبير على مجريات الأطر الفكرية والتوجهات الفلسفية للعديد من المناهج والرؤى النقدية، وتطور عنها تيار نقدي كامل هو ما يعرف اليوم بـ ‘‘نظرية التناص"، أو "تداخل النصوص" التي دشنتها جوليا كريستيفا، ووجدت بلورتها الدقيقة نظريًا وتطبيقيًا في كتابات تودوروف.

الكلمات المفتاحية: *الحوارية، النص الأدبي، باختين، كريستيفا*.

هذا العمل مرخص بموجب CC BY-4.0

ISSN 2664-1682 https://journals.misuratau.edu.ly

1. المقدمة

تعد الحوارية Dialogisme من المفاهيم الإجرائية الأساسية التي وضعها الناقد الروسي ميخائيل باختين في العشرينات من القرن الماضي.اعتمد في ابتكاره لهذا المفهوم على أعمال الأديب الروسي دستويفسكي وركز أساسا على مقومات الإبداع لتتبع الخيط الرفيع لهذا المصطلح.

كان لحوارية باختين باعتبارها أساسًا لفهم النصوص الأدبية وتفاعلها مع النصوص الأخرى– الأثر الكبير على مجريات الأطر الفكرية والوجهات الفلسفية للعديد من المناهج والرؤى النقدية. فلقد نتج عن تلك النظرية مسلك نقدي شامل هو ما يعرف اليوم بنظرية التناص التي احتلت مساحة واسعة في الفكر النقدي الغربي الجديد، حيث تمت إعادة بلورة جديدة لهذا المصطلح على يد البلغاريين (جوليا كريستيفا) و(تزيفيتان تودوروف).

1–2 أسئلة البحث

ينطلق بحثنا من التساؤلات الآتية:

- ما مفهوم الحوارية؟
- كيف تنبع الحوارية في النصوص الأدبية؟
- ما الذي يخلق حوارية الرواية؟
- هل يمكن لحوارية باختين أن تنوّع و تعمّق أشكال التلقي الحواري لنص الآخر؟
- هل يمكن اعتبار نظرية التناص كامتداد لحوارية باختين؟

أسئلة بدأت تفرض منطقها المغاير انطلاقا من فكر باختين، الذي نراه أداة لتطوير فهمنا وتحليلنا لمفهوم الحوارية، وسنحاول الإجابة عنها في إطار سوسيولوجيا النص على المستوى النظري، بما يلقى المزيد من الضوء على أطروحات بعض النقاد الغربيين لهذا المصطلح.

2. المنهجية

استنادا إلى التوجه النقدي الذي سماه باختين– سوسيولوجيا النص– سنحاول التأكيد أن الحوارية من أهم جوانب اهتمامها، فمن منظور سوسيولوجيا النص يتجلى عالم التخييل مسارا حواريا، يستوعب بواسطة النص الأدبي اللّغات الخاصة والخطابات الشفاهية والمكتوبة، المتخيلة والنظرية. وانطلاقا من وضع النص الأدبي في سياقه الحواري، أي في علاقته بالأشكال الخطابية التي يتداخل معها عن طريق استيعابه وتحويله ومعارضته إياها، فإنّ هذه الأشكال الخطابية هي التي يمكّنها تفسير البنيات السردية التركيبية والدلالية.

تسعى سوسيولوجيا النص الأدبي إلى تمثيل مختلف البنيات النصية كبنيات لسانية واجتماعية في آن، ما دام الأمر يتعلق بمستويات دلالية وتركيبية (سردية)، ذات علاقات جدلية، ومن خلال هذه العلاقات يمكن النظر إلى العالم الاجتماعي كمجموع لغات اجتماعية مستوعبة ومحولة بواسطة النص الأدبي.

3- الحوارية عند ميخائيل باختين كتابة ديمقراطية وتحريك دينامية الإبداع:

انطلق باختين من موقع نظري مغاير لاتجاه الشكلانيين والأسلوبيين المتأثرين بألسنية دي سوسير، الذين قدموا اللغة على أنها بناء مستقل له أنساقه ودلالاته وقوانينه وضوابطه المكتفية بنفسها، التي يمكن أن تدرس دراسة علمية دقيقة. فقد ألح باختين على أسلوبية الجنس الأدبي حتى لا يكون هناك فصل بين اللغة وبين الجنس التعبيري، الذي هو جزء لا يتجزأ من الذاكرة الجماعية، وهذا الربط هو الذي يسمح لنا بمتابعة مصائر الخطاب الأدبي التاريخية لأن الرواية هي:"التنوع الاجتماعي للغات، وأحيانا للغات والأصوات الفردية تنوعا منظما أدبيا"(باختين،1988،ص15) ، بناء على ذلك فإنّ اللغة تستوعب كل عمليات الفكر والوعي: "وتصبح الظاهرة الإيديولوجية المثلى، الأمر الذي يجعل تحليل الكلمة أمرا اجتماعيا كدليل مجتمعي حتى يمكن فهم اشتغالها كأداة للوعي، وتستطيع الكلمة بفضل هذا الدور الاستثنائي الذي تؤديه أن تشتغل كعنصر أساس مرافق لكل إبداع إيديولوجي" (باختين،1987،ص92) ، فضلا عن ذلك يرى أنه ينبغي على اللغة المستخدمة في حوارات شخصيات الرواية أن تقوم بوظيفة إنشاء صورة اللغة، أما عن المستوى الموضوعاتي في النص الروائي، فعليه أن يكشف عن الخطابات الاجتماعية والإيديولوجية وتبيان الروابط القائمة فيما بينها. يقول باختين: "اللغة نظام مشبع إيديولوجيا وليست اللغة نظام مجموعات قواعد مجردة، وفي حالات كثيرة ننظر إليها كرأي مشخص يساعد على فهم بعض المجالات الحياتية" (BAKHTINE, 1978, P.83).

بنى باختين نظرية الرواية على نظرية اللّغة، رأى "فالرواية صورة عن اللغة ورأى في اللغة صورة حوار لا ينقطع، تأخذ الرواية في هذه الرؤية صفات الحوار وتكون تجسيدا له"(دراج، 1999، ص72)، يبرز بها الكاتب الوعي الإنساني المحاط بوعي الآخرين.وتعدّ اللغة الوسيلة الناجعة للعبارة عن هذا الوعي، ويجسدها التفاعل اللغوي، فيمدها بالحياة والسيرورة، إذ لا نعثر على أداء لا تربطه صلة بتعبير آخر، لذلك يمكن القول أن الحوارية "تدل على العلاقة بين تعبير بتعبيرات أخرى، فيكتشف القارئ حينئذ لغة اجتماعية مختلفة"(باختين،1988،ص53). ويقرأ تدخلات كلامية غيرية ماضية سواء تدخلت بالمؤلف أم مؤلفين آخرين ثم إنّ الحوارية شكل:"من الأشكال الأساسية للتفاعل اللفظي، وهكذا فكل تبادل لفظي بالمعنى الواسع هو حوار مهما كانت طريقته للكلام.. وهكذا فإن الحوارية الباختينية تشير للكتابة كذاتية وكتواصلية أو بالتدقيق تناصية"(داود،1993،ص 81-82). وحسب كريستيفا : "الحوار هو الدائرة الواحدة التي يمكن أن تحيا فيها اللغة، وهو كتابة تقرأ فيها الآخر (Kristiva, 1978, p. 147) .

يرى باختين أن الدراسات النقدية الحدثية تجاوزت شكلانيتها المنغلقة، فصار النقد يبحث عن علاقة التفاعل اللساني واللفظي التي تربط النص المركزي بنصوص سابقة وأخرى لاحقة، فتبادل: "النصوص أشلاء نصوص دارت أو

تدور في فلك نص معتبر هو واحدة من سبل ذلك التفكيك والانبناء: "كل نص هو تناص والنصوص الأخرى تتراءى فيه بمستويات متفاوتة وبأشكال ليست عصية على الفهم بطريقة أو بأخرى، أن نتعرف فيها على نصوص الثقافة السالفة والحالية (الحسيب، 2007، ص 94).

تنبع العلاقة الحوارية من التفاعل الشفاهي للغة، الذي يجعل النص يندرج داخل سلسلة من النصوص الأخرى.والنص عند باختين يفترض جماعة لغوية تعكس أصواتها داخل اللغة عن طريق التلفظ والحوار اللذين يجسدان التبادل الشفاهي عن طريق الحوارية. إنّ مفهوم الحوارية مرتبط بمفهوم التعدد الصوتي واللغوي، والخطاب سواء كان أدبيا أو غير أدبي هو خطاب ثنائي التلفظ ليغدو مجالا للاختراقات وملتقى للعلامات. ويتجلى هذا الحوار في الرواية الذي يتطور من انفتاحه على مختلف الأجناس الأدبية. فالرواية تعيش في الحاضر لكنها تتذكر ماضيها وأصولها وهويتها الأولى، فالخرق والتحويل الامتصاص والاستيعاب والهدم وإعادة البناء، هي الخصائص الجوهرية على أساسها تنشأ حوارية الرواية وتعدديتها، ويعني باختين بالحوارية التي يستعيض عنها تودوروف بمفهوم التناص:"كل ما يسمح للروائي بتحطيم البناء المونولوجي الممركز حول صوت واحد، وموقف واحد ولغة واحدة، والانفتاح على غنى اللغات واختلاف أصدائها وعدم الاقتصار على تشخيصها وحسب، وإنّما اتخاذها أداة للتعبير عن المقاصد والنوايا (الخضراوي،2010،ص297).

ترجم باختين الحوارية بقوله أنها من السمات الأساسية للكاتب الروائي، الذي يتحدث فيها عن نفسه في لغة الآخرين، والتحدث عن الآخرين من خلال لغته الخاصة به ومن ثم فإنّ الروائي يلجأ إلى عدة وسائل لتكسير لغته وتحريفها حتى لاتبدو مباشرة أو أحادية.وعلى هذا فإنّ الحوارية ظاهرة مشخصة لكل خطاب يفاجئ خطاب الآخر بكل شكل فيدخل معه ضمن تفاعل حي. ويغدو الخطاب هنا ككتابة ديموقراطية. هذا الرأي تؤكده يمنى العيد بأن الحوارية تحقق في النص نوعا من الديمقراطية عندما تدمج أسلوب الكاتب وأيديولوجيته برؤى متنوعة، فتعبر بذلك على وعي شامل بالواقع (العيد،1987، ص،177).

يؤسس باختين "الحوارية"على تعددية الأصوات داخل الرواية من حيث عدد الشخصيات التي تحضر بموروثها اللغوي وثرائها الفكري لتؤثث الفضاء الحواري للخطاب الروائي وهو ما يجعل الناقد الروائي أمام مفارقة التداخل الإيديولوجي والثقافي الحاصل في لغة تخاطب الشخوص، من حيث ارتباطها بمرجعيات محددة قبلا.

إن تشكل تعدد الأصوات لدى باختين يبدأ في ظل جوهري هو حيادية المؤلف أمام أبطال الرواية وشخوصها فينجم عنها تفجير الأسلوب الموحد إلى أساليب متعددة ترصد لنا أبعاد كل شخصية على حدة، وتعطي للرواية ميزة مفارقة لتغد ككل: "ظاهرة متعددة الأسلوب و الصوت ويعثر المحلل فيها على بعض الوحدات الأسلوبية اللامتجانسة التي توجد أحيانا على مستويات لسانية

مختلفة(باختين،1988،ص 38). يقتضي بذلك الكاتب أن ينوع الأبطال من مختلف المستويات الفكرية والاجتماعية، كما يحدث عادة في الرواية الواقعية، وحتى إذا كانت الرواية تصور شريحة اجتماعية واحدة ، فهي تحافظ دائما على تفاوت نسبي لدى كل شخصية في مستوى التفكير ونوعية السلوك الفردي، وهذا التفاوت ليس مسألة عارضة في الرواية ولا هو طرف زخرفي، بل هو مسألة ضرورية لقيام أي نوع من الحكي– تعدد أصوات أو تعدد أساليب—على الإطلاق، فإذا لم يكن هناك تعارض واختلاف من أي نوع، فلا يمكن أن يتحقق أي شكل من أشكال الحكي.

أدى عمق التوجه الحواري عند باختين إلى أن يدرك أن النص الروائي نقطة ائتلاف أصوات مختلفة، فتأخذ الحوارية من الناحية التفاعلية أنواعا كثيرة من الحوارات.

▶ *الحوارية الخارجية :* يتمظهر هذا النوع بين شخصين أو أكثر.

▶ *الحوارية الداخلية:* تخص الفرد ذاته، ويكون حوارا مع نفسه، فالصوغ الحواري: "الداخلي للخطاب الذي يتغلغل إلى مجموع بنيته وطبقاته الدلالية والتعبيرية وقع تقريبا تجاهله باستمرار، غير أن هذا الصوغ الحواري الداخلي للخطاب هو بالضبط الذي يتوفر على قوة مؤسلبة كبيرة. إن الصوغ الحواري الداخلي للخطاب يجد تعبيره داخل سلسلة من خصائص الدلالة والتركيب والتأليف (باختين 1988، ص54).

عندما يحدّث الشخص نفسه، يفكر ويتردد ويستمع إلى صوته فيقوم باستحضار صوت آخر قد يتعارض معه أو يتعارض مع الطبقة التي ينتمي إليها. ومصدر هذا الصوت هو المحيط الاجتماعي الزاخر بالقراءات الثرية والمناقشات المتنوعة التي تصب في مجالات لها صلة بالتاريخ والدين والعقائد والفلسفة والأخلاق،فتصبح ميدانا لاصطراع أصوات الآخرين وتباين مواقفهم ورؤاهم.

إن حوار البطل الداخلي يبرز لنا صراعا متوترا بين عدد من أشكال الوعي الفردية الأخرى بكل جوانبها وظلالها وإمكاناتها، فحين تترابط المواقف الحياتية التي يتبناها الآخرون، تكتسب تعقيدات كبيرة من الصراع والتناقض وتتعدد أوجه الفكرة ووجهات نظر التي تتفاعل داخل الحوار الكبير، في هذه الحالة قد تتجاوب مع الأفكار القريبة منها والشبيهة لها، التي تعود حتما إلى أزمنة وعصور مختلفة.

▶ *حوارية الخطاب:* يقصد بها توجه خطاب لشخص ما، يتوصل إلى أن يفهمه وأن يقدم له جوابا محتملا. وهذا الشخص قد يكون قارئا أو سامعا. تتولد علاقة اجتماعية يقابلها إطار تراتبي خاص بالمهنة و الانتماء الطبقي والثقافي، وحينئذ تتولد مستويات لغوية متباينة بوصفها مواقف ورؤى مرتبطة بالإيديولوجيا.

▶ *حوارية الأفكار:* تتشكل الأفكار وتتطور عندما تقيم علاقات حوارية مع غيرها من أفكار الآخرين. ويكون التعبير عنها بالكلمة، لأن الفكرة إذا انحصرت داخل فكر الفرد لا تدخل في علاقات حوارية مع الآخر، في حين إذا تجاوزت

الوعي الفردي فإنها تدخل في مجال التفاعل اللغوي لتتولد عنها أفكار، أن الفكرة تأخذ طابع الشمول في ظل فكرة الحوارية، وطابع الأحادية في ظل طابع الرواية المونولوجية.

إن من شروط تكوين الفكرة والإشكالية الفهم العميق للطبيعة الحوارية للفكر الإنساني ووعيه، لذلك: "يجب تعميق البحث في اتجاه ما هو فينا،ما هو قابع في زوايا و وعينا، أو تحت وعينا(شارتييه،2001،ص،202). ففي الرواية ذات الطابع الحواري: "تبنى لا بوصفها وعيا واحدا وتاما يتقبل موضوعيا أشكالا أخرى من الوعي، بل بوصفها تأثيرا متبادلا تاما لعدد من أشكال الوعي(باختين،1987،ص34). ذلك أن ما ينتج حوارية الرواية عند باختين إضافة إلى تعدد الرؤى والأصوات هو تعدد الأساليب واللغات المتصلة بمختلف الهيئات المجتمعية، فكل شخصية في الرواية تعمل على الحفاظ على لغتها الاجتماعية وأسلوبها الخاص ونبرتها المميزة وتتكلم بصوتها الذي يشخص لغة اجتماعية ويحيل على فكرة معينة تتجسد عن طريق الحوار مع أشكال الوعي الأخرى، لذلك تظل في حاجة لأنّ تكون مسموعة ومفهومة ومجابا عنها بأصوات أخرى صادرة عن أشكال وعي أخرى. وكأن الرواية إعادة إنتاج للعلاقات الاجتماعية والصراع الايديولوجي عن طريق اللغة.

يؤدي تطور الأفكار عبر الحوارية إلى انقسام الخطاب الروائي إلى عوالم الأبطال، التي تتحكم صياغتها النهائية بالأفكار التي تسيطر عليهم، ونتيجة لهذا التأثير المتبادل بين أشكال الوعي في مجال الأفكار، يقوم الخطاب الروائي على الصراع والحوار والانفتاح وكسر الحدود، فيكون خطابا مشبعا بتعددية ثقافية. إن هذا التقسيم لهذه الحوارية يبين مدى شمولية هذا المفهوم وسعته، وعمقه في مجال الحياة البشرية وأصناف الخطاب الروائي.

ففي علم البلاغة يطلق لفظ الحوارية: "للدلالة على الطريقة المتمثلة في تضمين حوار خيالي في صلب الملفوظ، أما في تحليل الخطاب، فيستعمل على أثر باختين، للإحالة على البعد التفاعلي الجم للّغة (مونغانو،2005،ص،34).

إنّ الإنسان لا يمكن أن يكون بمثابة آدم ومن ثم فإن موضوع خطابه يصبح لا محالة الموطن الذي تلتقي فيه آراء المخاطبين المباشرين في الحديث أو النقاش الذي يدور حول أي حدث من الحياة العادية أو رؤى العالم والنظريات في دائرة التخاطب الثقافي، بيد أن باختين يستعمل الحوارية كذلك بمعنى التناص في الفرق بين الحوارية التناصية والحوارية التفاعلية، وهو أن الأولى تحيل على مؤشرات اللاتجانس التلفظي والاستشهاد بمعناه الواسع، أما الثانية فتحيل على التجليات المتنوعة للتبادل الكلامي، ومع ذلك حسب باختين لا يمكن أن تفصل بين النوعين، فكل تلفظ حتى في شكله الثابت، إنما هو جواب على شيء ما.إنّه ليس سوى حلقة في سلسلة فاعل الكلام، وكل ملفوظ إنما يهدد الملفوظات التي سبقته فيعمقها ويساعد على الفهم.

كل إنتاج لغوي يرجع إلى حقل العبارات المستخدمة في مجتمع ما، وفي حقبة خاصة من تاريخه، فالكاتب يتحرك ضمن الكلام أو الخطابات الموجودة من قبل، ثم إنّه لا يتناول

الكلام أو الخطاب الموجود سابقا فقط، إنما يشمل أيضا كل إنتاج لغوي محتمل وآت.

4- الحوارية عند جوليا كريستيفا/ترحال للنصوص و تقويض القراءات الأحادية لها:

استطاعت كريستيفا أن تحقق نقلة مميزة للبنيوية مستعينة بميراث باختين، فقد كان دورها: "حاسما لكونها أول من قدم مفهوم الحوارية إلى الساحة الفرنسية في محاضرة ألقتها بعد وصولها إلى باريس عام 1966، وذلك في مقالة بعنوان "الكلمة، الحوار والرواية". لقد جاء تقديمها لذلك المفهوم تحت مسمى النصوصية أو عبر النصية في فترة حاسمة من تاريخ النقد الغربي المعاصر، إذ إنه تزامن مع مرحلة الانتقال من البنيوية إلى ما بعد البنيوية. وفي مقال كريستيفا مراوحة بين البنيوية بحنينها إلى الدقة واليقين العلميين وما بعد البنيوية بمواجهتها للجانب الآخر من اللّغة بما يتضمنه من تداخلات نصية "(البازعي،2005، ص319).

عوضت كريستيفا مفهوم الحوارية بمصطلح التناص (L'intertextualité)، مدركة بأن باختين هو الذي منح للبنيوية:" بعدا حيويا في مفهومه للكلمة الأدبية، بوصفها تقاطع سطوح نصية بدلا من أن تكون نقطة معنى ثابت وحوارا بين عدة كتابات، حيث عرفت التناص عند باختين قائلة: "إن كل نص يتألف من فسيفساء من الاقتباسات، كل نص امتصاص وعادة تشكيل لنص"(البازعي،2005، ص319)

يعد باختين في نظر كريستيفا الكاتب والعالم السباق إلى تقسيم النصوص بطريقة نظامية، حيث لا تعد الكلمة الأدبية معنى ثابتا فحسب، بل هي محل التقاء كتابات، وهي حوار لعدة أطراف الكاتب، المرسل إليه، والسياق الثقافي الحالي أو الماضي. والنص الأدبي حسب باختين يتموقع في التاريخ وفي المجتمع اللذين ينظر إليهما كنصوص يقرأها الكاتب فيجسدها عبر الكتابة (kristiva،1978، ص147).

الكلمة في فضاء النص حاملة لموروث ثقافي اجتماعي يعتمده الكاتب. وبما أنّ كل نص هو امتصاص وتحويل لنص آخر، فإننا نقرأ في الكلمة، وفي النص عدة كلمات، أو عدة نصوص، واللّغة الشعرية تقرأ على الأرجح قراءة مزدوجة، وهنا يطرح باختين الإشكالية أو القضية التي أكدها "غريماس" وهي أن تطور الأجناس الأدبية هي إبراز لا واعي للبنيات اللسانية بمختلف مستوياتها (kristiva ،1978، ص147). فالتناص حسب كريستيفا يندمج في إشكالية الإنتاجية النصية التي تتبلور كعمل النص، وهو ذلك التقاطع داخل نص لتعبير (قول)، من نصوص أخرى، والعمل التناصي هو اقتطاع وتحويل.

ينتهي بنا هذا التعريف إلى رصد التعريف الذي قدمته كريستيفا للنص مدرجة فيه جملة من المفاهيم، فالنص: "يحدد كجهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان بالربط بين كلام تواصلي يهدف إلى الإخبار المباشر وبين أنماط عديدة من الملفوظات السابقة عليه أو المتزامنة، فالنص إذا إنتاجية

"(كريستيفا، 1997 ص21)، مما أدى برولان بارت إلى الإقرار بأن تعريف كريستيفا جامع وأصولي للنص. تأييدا لآراء باختين عن النص الإبداعي، ترى أنه: "ليس مجموعة من الملفوظات النحوية واللغوية بل إنّه ترحال لنصو وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة من نصوص أخرى" (كريستيفا،1997، ص21).

وهكذا يصبح النص نقطة التقاء وتفاعل عدة نصوص سابقة ضمن نص جامع، تم فيه الالتحام بين مختلف الاتجاهات والرؤى التي تحملها. إنّه يصنع من كتابات متعددة منسحبة من ثقافات متنوعة، وهو يدخل بذلك في علاقات متبادلة من الحوار والمنافسة مع سواه من النصوص.

إن الحوارية وثيقة الصلة بالتناص، وهما معا متطابقان في أوجه مختلفة، حيث إنّ النص ليس ذات مستقلة أو مادة موحدة، ولكنه سلسلة من العلاقات مع نصوص أخرى ونظامه اللغوي، مع قواعده ومعجمه، جميعها تسحب إليه. فالتقارب بين التناص والحوارية، واضح وكبير، حيث ينشأ النص عن تراكم مجموعة غير متناهية من الأفكار والمفاهيم، التي يكتسبها الكاتب من اطلاعه على المورث اللغوي والثقافي الإنساني. فيغدو بذلك النص: "سلسلة كبيرة تترابط فيما بينها بواسطة هذا التجانس والاتفاق في الأفكار والرؤى والدلالات المتنوعة. فالكاتب يتطور في عالم مليء بالكلمات، لا يلتقي بفكرة إلا وقد وجدها مشغولة في السابق" (PEYTARD. 1982.P 1315).

إذا كان باختين يسلم بانفتاح الرواية وتحولها المستمر واستضافتها لأجناس ولغات أدبية متفاعلة إما كنسق روائي، أو كتناص قصدي يفعّل فيه وعي الكاتب، فإنّ كريستيفا ترى الحوارية رفضا لأحادية الخطاب وتخلصا من الطابع المونولوجي فيه، لاسيما أن الحوارية تمتد إلى عمق لغة الأدب. وبهذا يكون التناص، ذلك التقاطع داخل نص لتعبير مأخوذ من نصوص أخرى، إنّه النقل لتعبيرات سابقة أو متزامنة، والعمل التناصي هو اقتطاع وتحويل، إنّه يولد هذه الظواهر التي تنتمي إلى بداهة الكلام.

لعل هذا الذي دفع "بلوران جيني" يقر في مجلة الشعرية بأن العمل الأدبي خارج التناص يغدو ببساطة غير قابل للإدراك، لأنّ إدراكنا للمعاني في العمل الأدبي يتوقف على علاقته بأنماط أخرى من النصوص وحيالها (الأنماط) يدخل العمل الأدبي في علاقة قد تكون تحويلا أو خرقا. (VOIR JENNEY. 1976.P 257).

إنّها عملية تحويل واستيعاب نصوص أخرى يقوم بها نص مركزي يحتفظ بالصدارة في المعنى. فهي عملية إدخال نمط جديد من القراءة، تفجر خطية النص مما يعمل على إنتاج الدلالة وتأسيس تعالقات بنيوية أكثر عمقا، لا تكتفي بذاتها، بل تنفتح على نصوص ودلائل أخرى، بحيث تجعل النص ضفيرة من النصوص القادمة من فضاءات قصصية مختلفة، يدخل في خضم الحركة والتفاعل.

إن التناص يمتص النصوص ويدخلها في سياق جديد وكلما كانت ثقافة القارئ متمكنة كلما استطاع أن يتبين

حطام وبقايا النصوص الممتصة والمحولة واستخلص كون أن النص ما هو إلا توليف تناصي لا يمكن لأي أحد السلامة منه. تؤكد مقولة التناص بأنّه ليس هناك ثمة نص عذري بل إن أي نص مخترق من طرف نصوص أخرى.

هكذا" يغدو الغمس في صحون الآخرين واستدعاء نصوص أخرى أمرا طبيعيا يدخل في صميم الكتابة، بحيث لا تكون الكتابة مطلقا على بياض، وإنّما كتابة فوق كتابة، ورسما فوق رسم، ويغدو كل نص ضرسا شفافا وكائنا جيولوجيا يحمل ماضي الكتابة كلها "(الحسيب،2007، ص107). وبالتالي فإنّه عمل على: "تقويض القراءات الأحادية للنصوص، لأنّه لم يعد من الممكن مع هذا المفهوم الجديد، الحديث عن عنصر فني بمعزل عن باقي العناصر الأخرى التي ترتبط فيما بينها ضمن شبكة من العلاقات مؤتلفة أو مختلفة. "(الحسيب،2007، ص125). فالنص الروائي مع هذا التصور غدا فضاء متعدد المسارات السردية والملفوظات والدلالات، لا يكتفي بنبرته ولغته الخاصة بل إنّه ينفتح على لغات أخرى مختلفة ومتعددة.

الحوارية إذن مقدمة أساسية لمفهوم التناص، الذي يكشف: "عن وجود فعلي لنص في نص آخر (GENETTE, 1982.P8)، بحيث لا يضيف شكلا حديثا عليه، إنما يكشف عن خاصية كانت مطمورة، وكأنه رمز يعمل على تحريك دينامية القراءة والإبداع.

5- الحوارية عند تزيفيتان تودوروف امتداد إلى عمق لغة الأدب:

استفاد تودوروف كثيرا من أبحاث باختين وبخاصة ما يتعلق بالآراء اللغوية المعتمدة منه، التي أفرزت تصورات جديدة، فاللّغة: "قابلة للتحقيق والتلوين، كما أنّها تنطوي على قوة تجدد وتغير هائلة، فهي تدخل في عملية محتدمة من الصراع الدائم، وأنها مليئة بالتعارضات والشروح الداخلية" (تودوروف، 1996، ص9)، لأنّ اهتمامات باختين بالغة الأهمية تعود على اللّغة وديناميات الكلام الحي وتفاعل التلفظات، حيث تصير التلفظات المادة الأساسية في الوصف والتحليل، لذلك أعاد النظر في مفهوم الإيديولوجيا، توسع فيها وأدخلها في دائرة تحليلية معمقة مستعينا بالتلفظات وتفاعلها الاجتماعي، على أنها يمكن أن تصبح موضوعا لاستعمال علم لغة جديد، سماه علم عبر اللسان.

بهذه الطريقة تغلب باختين على ثنائية الشكل والمضمون، مركزا على التحليل الشكلي للإيديولوجيات، و"رفض فكرة بقاء الرواية أسيرة لتلك التحليلات الإيديولوجية بالطرق التجريبية أو أسيرة لدراسة الخصائص الأسلوبية والفنية فقط" (فضل، 1994، ص. 136).

الواقع أن ما دفعه إلى ذلك، أنّه لاحظ أن المظهر الأكثر إهمالا هو حوارية التلفظ والبعد التناصي فيه، فبعد: "هبوط آدم إلى هذا العالم لم تعد هناك أشياء بلا أسماء أو أي كلمات غير مستعملة. إنّ كل خطاب عن قصد أو غير قصد يقيم حوارا مع الخطابات السابقة له، الخطابات التي تشترك معه

في الموضوع نفسه، كما يقيم حوارات مع الخطابات التي ستأتي والتي يتنبأها "(تودوروف 1996، ص16)، حيث إنّ كل تلفظ يدخل في علاقة حوارية مع التلفظات التي أنجزت سابقا. ذلك أنّ الوجه الفعلي للعلوم الإنسانية هو النص، لأنّه واقع الفكرة والخبرة، فالعلوم الإنسانية تتجه إلى كشف الذات وفهمها: "فالفهم يقابل التلفظ كما يقابل الجواب جوابا آخر ضمن الحوار، والفهم هو أيضا بحث عن خطاب مضاد لخطاب المتلفظ" (تودوروف، 1996، ص55).

فالعلاقات التي يقيمها مع نصوص أخرى هو متناص، والتلفظ الذي يصفه تلفظ آخر يدخل معه في علاقة حوارية، إذ يحدث لقاء بين نصين: النص المعطى والنص الذي يتولد كرد فعل عليه، وبالتالي لقاء من مؤلفين وبين ذاتين منه ندرك بأن انفصال النص عن ماضيه ومستقبله يصبح نصا بلا ظل (بارث، دت، ص61)

إنّ دلالة الخطاب وفهمه عند تودوروف من قبل الآخر أو الآخرين يفترضان التفاعل بين الخطابات، وأن الوعي مسألة أساسية في تحريك هذا التفاعل الذي تجسده المسألة اللغوية والمسألة الإيديولوجية، لأنّ "أجناس الخطاب تنتمي إلى المادة اللغوية على قدر انتمائها لإيديولوجية المجتمع المحددة تاريخا" (تودوروف،2002، ص20)، بتعبير آخر، إنّ كل نص يحمل في طياته قطبين، وكل نص يفترض منذ البدء نظاما من العلامات يفهم من شخص، أي أنّه نظام متواضع عليه، تنتسب إليه كل عناصر النص المعاد إنتاجها والقابلة لإعادة الإنتاج.

ومنه يمكن أن نسمي النص الذي لا يستحضر شيئا مما سبقه أحادي القيمة. أما النص الذي يعتمد على استحضار ما سبقه بشكل صريح، نسميه نصا متعدد القيمة، إذ لا يمكن "أن نعزو الخطاب إلى المؤلف وحده، قد يكون له حقوق في الخطاب غير قابلة لتحويلها إلى شخص آخر، لكن للسامع أيضا الحقوق نفسها، وكذلك لأولئك الذين يترجم أصواتهم في الكلمات التي أوجدوها، إذ ليس هناك كلمات لا تنتسب إلى شخص ما" (تودوروف، 1996، ص107).

يمكن عدّ مفهوم الحوارية معادلا للتناص، حيث يؤكد تودوروف بأن الخاصية المهمة للخطاب هي حواريته أي بعده التناصي. فكل خطاب يدخل في حوار مع الخطابات اللاحقة، والصوت الفردي لا يمكن أن يسمع إلاّ إذا اندمج عضويا في اللحن الجماعي المعقد لباقي الأصوات السابقة، الأمر الذي دفع باختين إلى التعامل مع الثقافة كظاهرة اجتماعية، فتودوروف يقول: "...وكما استعملت عبر لسانيات بدل ميتالسانيات فإنني استعمل هنا أيضا، وباختياري من أجل المعنى الأكثر اشتمالا مفهوم التناص الذي أدخلته جوليا كريستيفا في تقديمها لباختين"(تودوروف،1996، ص95)

فضل تودوروف استخدام التناص بدل الحوارية، لأن الحوارية مثقلة بتعددية مركبة في المعنى، فاستغلها في أمثلة

تخص التناص كتبادل الاستجابات بين متكلمين، العلاقات الحوارية خاصة ومميزة بصورة عميقة، ولا يمكن اختزالها إلى علاقات من نمط منطقي أو لغوي أو نفسي أو آلي وأي نوع من العلاقات الطبيعية. إنّها نمط استثنائي وخاص من العلاقات الدلالية التي ينبغي أن تشكل أجزاءها من تعبيرات يقف خلفها فاعلون متكلمون حقيقيون أو فاعلون متكلمون محتملون، مؤلفو التعبيرات موضوع الكلام.

يحطم التناص الحدود القائمة بين الأجناس الأدبية، ويذهب تودوروف إلى أن الخطاب الوحيد الذي لم يحدث فيه التناص هو الخطاب الأول بين الله وآدم، أما باقي الخطابات، فكلها تزخر بعلاقات تناصية، لأنّ النص دائم التعرض للنقل إلى سياق آخر فكل نص أدبي خلاصة تأليف لعدد من الكلمات، والكلمات هذه سابقة للنص في وجودها كما أنها قابلة للانتقال إلى نص آخر، وبهذا تحمل معها تاريخها القديم والمكتسب.

إنّها رؤية مفارقة للقراءات التي يغيب فيها النهج وتترك للقارئ أو الناقد أن يحلل أو يبدي رأيا دون سند ومبرر، ويلاحظ هنا كيف أن الحوارية تحلّ إشكالية الخطاب الأدبي والبحث في مكوناته ورؤاه وتصنيفاته.

6. الخاتمة

اعتمد باختين لابتكار مفهوم الحوارية على أعمال الأديب الروسي دستويفسكي وركز أساسا على مقومات الإبداع لتتبع الخيط الرفيع لهذا المصطلح، فقد شكل هذا المفهوم عند الناقد الروسي ميخائيل باختين منعطفا كبيرا في حقل الدراسات السردية البنيوية للخطاب الروائي، إذ تطور هذا التصور في شكله الحداثي مع جوليا كريستيفا و تودوروف. وبناء على ذلك توصل بحثنا إلى جملة من النتائج نوردها كالآتي:

- تمثل الحوارية قمة التنظير الباختيني من جهة، وصفوة التفكير النقدي الغربي من جهة أخرى، وذلك لأنها تتميز بالشمولية والتعقيد، فهي نظرية لا تقف حدودها عند الأدب بل تتعداه إلى مجالات إنسانية ومعرفية شتى.

- قدم باختين مقترحات وفرضيات تتعلق بجمالية جديدة في دراسة النص الروائي فبالتوازي مع حركة النقد الاجتماعي والنقد الشكلاني،عني باختين بتوجه آخر يمكن تسميته بسوسيولوجيا النص الروائي. حيث أكد العلاقة المتينة بين اللغة و الإيديولوجيا من مبدأ أن الوجود الاجتماعي ينجز أشكالا مختلفة للوعي، ويخضع في أساسه إلى طبيعة الوجود الفعلي للأفراد بوضعياتهم الاقتصادية والاجتماعية، فطبيعة التواصل الإنساني تجعل اللغة تشتغل بوصفها مجموعة من الأدلة المشبعة بنظرات وتصورات الفئات والطبقات الاجتماعية وتعبيرا عن رؤاهم الفكرية.

-يؤسس باختين "الحوارية" على تعددية الأصوات داخل الرواية من حيث عدد الشخصيات، التي تحضر بموروثها اللغوي وثرائها الفكري لتؤثث الفضاء الحواري للخطاب الروائي وهو ما يجعل الناقد الروائي أمام مفارقة التداخل الإيديولوجي والثقافي الحاصل في لغة تخاطب الشخوص، من حيث ارتباطها بمرجعيات محددة.

-استلهمت كرستيفا من باختين مفهومه للحوارية، لترى أن التحليل النصي لا يتم إلا في ضوء تناصه، فالنص يعيد توزيع اللغة، بل هو حقل إعادة هذا التوزيع، يرمي التحليل التناصي الذي تقترحه كرستيفا البحث في الوظيفة التي تربط بنية نصية أدبية ببنى أخرى.

- ترى كرستيفا بعد عرضها لنظرية باختين ومقارنتها بما قدمه الشكلانيون الروس أنه يمكننا أن نجد اليوم العلاقات الحوارية في مستويات عديدة من اللغة: في الثنائية الملتحمة بين الكلام واللغة، في نظام اللسان، التواصل الجماعي،ا لتواصل المونولوجي، حتى في نظام القيم الذي يتجلى في الحوار مع الآخر.

-أكد تودوروف بأن الخاصية المهمة للخطاب هي حواريته أي بعده التناصي. فكل خطاب يدخل في حوار مع الخطابات اللاحقة.

- فضل تودوروف استخدام التناص بدل الحوارية، لأن الحوارية مثقلة بتعددية مركبة في المعنى.

-تمثل أهمية عمل تودوروف -في رأيي- أنها تنطلق من موقف فلسفي يجعل من الكتابة ممارسة حوارية، من خلال دعوته المستمرة للقراءة، ومن خلال اعتباره نقدَ النقد نوعاً من التناص أو التداخل النصي بمفهومه الواسع مع بقية القراءات النقدية والإبداعية السابقة واللاحقة.

علينا أن نعترف في الأخير أنه من الصعوبة أن نتناول مفهوما شائكا ومستعصيًا ومعقداً كمفهوم الحوارية لأن الاشتغال على هذا المصطلح أمر معقد مازال متواصلا، وقد سعينا إلى القيام بحفريات مفاهيمية متتبعين مسارات هذا المصطلح في النقد الغربي مركزين على باختين و كريستيفا و تودوروف، إلا أن هذا لا يلغي وجود العديد من المنظرين الذين أسهموا في تطوير استعمال هذا المصطلح كجيرار جنيت ورولان بارت وغيرهم بمسميات مختلفة، إلا أن جل هذه التنظيرات استلهمت مفهوم حوارية باختين التي، تنطلق من رؤية أن النص الأدبي ليس كيانا مغلقا أو أحادي الصوت، بل هو ساحة تفاعلية تتجلى فيها مختلف الأصوات وتتناقض وتتحاور فيما بينها، مما يمنح النص عمقًا فكريا وحيويا.

تضارب المصالح

"يُقرّ المؤلف بعدم وجود تضارب في المصالح".

قائمة المراجع

أولا: **المراجع باللغة العربية:**

أنجينو، م (1987)، *في أصول الخطاب النقدي الجديد* (ترجمة: أحمد المديني). دار الشؤون الثقافية العامة.

باختين، م (1986). *شعرية دوستيوفسكي* (ترجمة: جميل نصيف التركيني). دار توبقال للنشر.

باختين، م (1987). *الخطاب الروائي* (ترجمة: محمد برادة). دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع.

باختين، م (1987). *الماركسية وفلسفة اللغة* (ترجمة: محمد برادة). ط2. دار الأمان للنشر والتوزيع.

باختين، **م** (1988). *الكلمة في الرواية* (ترجمة: يوسف حلاق)، منشورات وزارة الثقافة.

بارث، **ر (د،ت)**. *لذة النص* (ترجمة: فؤاد صفاء والحسين سحبان،) ط2. دار توبقال للنشر.

بارث، **ر** (1988). *نظرية النص* (ترجمة: محمد خير البيقاعي). العرب والفكر العالمي.

البازعي سعد (2005) دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط4، بيروت

تودوروف، **ت** (1989). *في أصول الخطاب النقدي الجديد*. ط2 (ترجمة: أحمد المديني). دار الكلام.

تودوروف، ت (2002). *مفهوم الأدب ودراسات أخرى* (ترجمة:كسوحة عبود). منشورات وزارة الثقافة.

تودوروف،ت (د، ت). *ميخائيل باختين ومبدأ الحوارية* (ترجمة: صالح فخري). المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

الحسيب، عبد المجيد (2007). *حوارية الفن الروائي*. منشورات مجموعة الباحثين الشباب في اللغة والآداب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المغرب.

الخضراوي إدريس (2005). النقد الروائي وإشكالية اللغة الروائية. *مجلة العلوم الإنسانية- جامعة البحرين*. 18- 19، 290 -327.

دارج، فيصل (1999). *نظرية الرواية والرواية* العربية. المؤسسة العربية للنشر والتوزيع.

داود، محمد (1993). مفهوم الحوارية عند ميخائيل باختين. *مجلة تجليات الحداثة -جامعة وهران*. 2، 75-86.

شارتيه، **ب** (2000). *مدخل إلى نظريات الرواية*، (ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي)، دار توبقال للنشر.

العيد، يمنى (1986). *الروائي: الموقع والشكل*. مؤسسة الأبحاث العربية.

فضل، تامر (1994). *اللغة الثانية في إشكالية المنهج والنظرية والمصطلح*. دار توبقال للنشر.

كريستيفا، ج (1997). *علم النص* (ترجمة: فريد الزاهي). ط2. دار توبقال للنشر.

مونغانو، د (2005). *المصطلحات: المفاتيح لتحليل الخطاب* (ترجمة: محمد يحياتن). منشورات الاختلاف.

ب- المراجع باللغة الأجنبية:

Bakhtine Mikhaïl, (1978). *Esthétique et théorie du roman Gallimard*. Paris.

Genette Gérard (1982). *Palimpseste, la littérature au second degré édition du seuil.* Paris.

Jenny Laurent (1976). *Stratégie de la forme poétique, Edition du seuil*. Paris.

Kristiva Julia (1978). *Recherche pour une sémanalyse. Edition du seuil*. Paris.

Peytard Jea (1982). *Littérature et classe de langue, Hatier*. Paris.

Citation: The concept of dialogism/from stimulating the dynamics of creativity to undermining the monolithic reading. *Faculty of Arts Journal- Misurata University*. 19, 77 -126. DOI: 10.36602/faj.2025.n19.07

The concept of dialogism/from stimulating the dynamics of creativity to undermining the monolithic reading

Ourida Abboud[1*]

[1] Mouloud Mammeri University of Tizi Ouzou, Algeria

* Corresponding author email address: abboudourida@yahoo.fr

Abstract

Writing is a fabric of signs constructed within the larger textual corpus, embracing the principle of multilingualism, expressing the social environment and ideological principles. This activity, guided by verbal and discursive interaction, can be summarized within the concept of dialogism. Accordingly, this study aims to delve into a set of issues related to this concept, drawing on the theoretical efforts of some Western critics to expound on the term dialogism—in the field of novel theory—a term that has carried multiple connotations and been developed by many in different contexts. However, we will focus on Bakhtin's dialogism, which has occupied a large space in Western critical thought and had a significant impact on the intellectual frameworks and philosophical perspectives of many critical approaches and perspectives. From this, a complete critical movement has evolved, known today as "intertextuality theory," or "intertextuality," pioneered by Julia Kristeva and found its precise theoretical and practical crystallization in the writings of Todorov.

Key words: *Dialogism, Literary text, Bakhtin, Kristeva.*